المبحث الثالث

رياح السَّموم التى تهب علينا من الغرب مُحمَّلة بالكذب والتزييف كيف نواجهها؟

من أوضح الأمثلة لرياح السموم التى تهب علينا من الغرب، من الولايات المتحدة على وجه الخصوص اخترت مثلين: أولهما المثل الذى يعرضه الدكتور فوزى فهمى[1] فى كتابه «عار العالم» وهو بحكم تعمقه فى الفنون والأدب والسياسة، يمزج بين القديم اليونانى وبين واقع التعسف الأمريكى المعاصر مزجًا محكمًا بليغًا فيقول: «تحكى إحدى الأساطير اليونانية عن عملاق يدعى «بروكروست» كان لديه سرير حديدى يجبر كل البشر من المارة على الرقاد عليه، فإن كانوا أقصر من السرير راح يمد أجسادهم مهما تخلعت، حتى يصيروا بطوله، وإن كانوا أطول منه قطع سيقانهم حتى يتساوى طولهم بمقياس السرير. ومدلول هذه الأسطورة يكشف عن موقف الخصام المبيت من العملاق تجاه فصائل البشر، ورغبته فى الهيمنة بضرورة انقياد واندحار البشر له

---

(١) فوزى فهمى - عار العالم - مكتبة الأسرة - سلسلة الأعمال الفكرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠٣ ص ٢٣.

تحت ضغط إجراءات التماثل والمطابقة بالقوة والعنف والتشـويه. وذلك بحشــرهم فى سريره، باعتباره القالب الذى يتصوره للبشر، كل البشر مهمـا تعارضت خصوصياتهم. وتنوعــت كياناتهم وتباينت. لأن نوازع التسـلط والاسـتبداد والخصام والهيمنة لدى العمـلاق تنكر خصائص البشر. بل أيضًا لا يهمه ما ينتج عن حشرهم وتقطيع أوصالهم، إذ المهم أن يصبحوا وفقًا لمقاس سريره!»

ومــن كتاب «عار العالم» يفند الدكتور فوزى فهمى التناقض والتلفيق فــى الوثيقة التى صدرت فى فبراير عام ٢٠٠٢ بعنوان ما الذى نحارب مــن أجله الآن. موقعًا عليها من ســتين مثقفًا أمريكيًا، على رأســهم «فرنسيس فوكوياما» صاحب كتاب نهاية التاريخ و«صموئيل هنتنجتون» صاحــب فكرة صدام الحضارات. هذه الوثيقة تحاول وضع مســوغ لقيام الحرب الأمريكية، كتبرير لعدالة هذه الحرب.

وتعدد الوثيقة المبادئ الخمسة الأساسية وفقًا لما يلى:

● البشر جميعا يولدون أحرارًا متساويين فى الكرامة والحقوق.

● الشـخصية الإنســانية هى الفاعل الأساسى فى المجتمع، والدور المشروع للحكومة التى كفلت الازدهار الإنسانى.

● من طبيعة البشــر الرغبة فى بلوغ حقيقة الحياة: الهدف منها، وغايتها النهائية.

● الحرية الدينية هى حقوق مصونة للشخصية الإنسانية.

● القتـل باسـم الله يتناقض مع الإيمـان بالله. والقتـل أكبر خيانة للإيمان الديني. يعلق الدكتور فوزى فهمى[1] قائلاً:

هذه المبادئ الخمسـة التي يراها المثقفون الأمريكيون مبررات لقيام واسـتمرار حربهم، يكشـف رصدها عن أنها قاصرة وغير كافية لدرء الصراعات المتعددة بل إنها أيضًا لا تخلو من الدرس الحضاري، إذ لم يرد ضمن هذه المبادئ ما يؤكـد الإيمان بالمصالحة بين الحضارات بتواصلها بدلاً من صدامها، بشراكتها بدلاً من تحاربها، بإمكانية تعايشها بدلاً من نفورها، وصولاً إلى مصالحة أعم؛ وهي مصالحة الإنسان مع العالم، إذ أسقطت قائمة المبادئ المختزلة - عن عمد - الإقرار بقبول الثقافات، بتنوعها وتعددها وتمايزها، وهي أم القضايا. فالوثيقة تتستر على هذا المعنـى وتحجبه وتمتنع عنه، صناعة لذاتهـا دون الاعتراف بالآخر، اسـتهدافًا إلى كونية ثقافيـة تُصدرها الحضـارة الأمريكية في ظروف تاريخية مأزومة وحرجة ومعقدة، إذ الخطر الفعلي في مجافاة وإنكار التنوع الثقافي أنه يفرز تخطيطًـا يفتح باب الرهان المؤكد لقطب العالم لنجاح محاولاته في فرض الوصاية والاختراق والاسـتدراج، تكريسًـا للقوة وإرادة الهيمنة والاسـتيلاء والاقتـلاع، في حين أن تاريخ تفاعل الحضارات يثبت أن الإقرار بالتنوع الثقافي وخصوصيته لا ينتج صدامًا أو إخفاقـا في التواصل الإنسـاني، ولا يمنع السـلام والتعايش، وإنما الأنظمة السياسية التي تسـتهدف الاحتواء والوصاية هي المسئولة عن

---

(١) المصدر السابق - ص ١٣ - ص ١٧.

تأجيج الصدامات؛ بإسقاط هواجسـها على المجتمعات بتصنيفها وفقًا لمصالحها لاكتساحها، حيث يتفنن منظرو هذه الأنظمة السياسية فى استنباط الأفكار الموهومة وترويجها، لإجهاض تطور هذه المجتمعات، وتهميشها وحضها على عدم مجاوزة الحدود المرسومة. لذلك فإن وثيقة المثقفين الأمريكيين فى مبادئها الخمسـة تكاشـفنا أيضًا، عبر تفكيك أسـرارها، بمبناها الذى يقوم على مقصد غير معلن، يسـتتر وينحصر - تحديـدًا - فـى التغييب والإعـراض عن الإقرار بتجريم اسـتخدام القوة العسـكرية كمرجعية لحل المشكلات، إذ ألح على الوثيقة هاجس منظرى سياسـة الهيمنة، فأعلنت، رفضها لممارسة القتل باسم الدين، كمؤشر يكشف سيطرة مشروع تصدير فكرة الصدام الحضارى القائم على نظريـة «هنتنجتون» فى التناحر بين الكتـل الحضارية، والتى تكرس للتناقض الأساسـى بـين حضارة الغـرب وبقية الحضـارات وأخصها الحضارة الإسـلامية. وقد توصلت الوثيقة بقراءتها لأحداث سـبتمبر للتدليل على المواجهة بين الإسـلام والحضارة الأمريكية فى ممارسـة القتل المجانى ليس لسـبب ما سوى الرفض المؤسس على مفهوم حتمية الانسـلاخ الحضارى، فتجاوزت القضيـة إرادة التقصى، وانعزلت عن صلتهـا بالواقع المعاش، وقفزت عليه لتنتج بذلـك عائقًا معرفيًا، وهو ما تكشـف عنه القراءة التى تطرحها أحداث سـبتمبر إذ ترى أن «قتلة الحادى عشر من سبتمبر لم يعلنوا أية مطالب معينة، وبهذا المعنى على الأقل فقد وقع القتل لغرض القتل ذاته. لقد وصف زعيم القاعدة «الضربات

المباركة» التي وقعت في الحادى عشر من سبتمبر بأنها ضربات ضد أمريكا، رأس الكفر العالمي. الواضح - إذن - أن مهاجمينا لا يزدرون فقط حكومتنا، وإنما يزدرون مجتمعنا بأسره، وطريقتنا في العيش برمتها. جوهر الأمر أن رفضهم لا يقتصر فقط على ما يفعله قاداتنا، وإنما يمتد أيضًا إلى ماهيتنا نحن» وبرغم أن الإسلام من الإرهاب براء، وأيضًا برغم إدانتنا ورفضنا الكامل لانتهاكات ذلك المخبول «بن لادن» للآمنين من الشعب الأمريكي، وعدم مصادقتنا على ممارسة الإرهاب ومباغتة الأبرياء، إلا أننا أمام ما تطرحه وثيقة المثقفين الأمريكيين، لا نقر بتصورها الكلي المتعالي على الواقع والأوضاع والتشابكات، والغارق في التهويمات، فالمجدى هو الخروج على عقلية صنع النموذج التي لا تحسن سوى أن تجعلنا نخسر ما نتطلع إلى المحافظة عليه.

إن الموقعين على الوثيقة من المثقفين الأمريكيين يعلنون في نهايتها عن نداء، بأن كل رجائهم - بشكل خاص - هو «التواصل مع أخواننا في المجتمعات الإسلامية. كلمتنا إليكم بكل صراحة: إننا لسنا أعداء؛ بل أصدقاء، لا يجب أن نكون أعداء، فنحن نشترك في أمور كثيرة جدًا، وهناك الكثير الذى لابد أن ننجزه معًا.. إننا نعلم أن بعضًا منكم لا يثقون بنا على نحو بالغ، كما نعلم أننا - الأمريكيين - مسئولون جزئيًا عن انعدام الثقة على هذا النحو، لكننا لا يجب أن نتعادى. أملنا أن ننضم إليكم، ومعنا كل أصحاب النوايا الطيبة؛ كي نقيم سلامًا عادلاً ودائمًا». ومن ذات المنطلق نعاود التأكيد أن الإسلام في سماحته يبرأ من الإرهاب،

ويدعــو إلى احترام تعدد الأديان والحرية فى المعتقدات، وهو ما شــهد به الصراعات المتجددة. بل إنها أيضًا لا تخلو من الدرس الحضارى.

علماء الغرب من المستشرقين الدارسين يقولون: لقد تعهد نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وســلم فى كتابه إلى أهل نجران من المســيحيين. وفقًا لما جاء في مدونة المعاهدات: «لنجران وحاشــيتها جوار الله، وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهــم وبعثهم، وأمثلتهــم، لا يُغَيَّر ما كانوا عليــه، ولا يُغَيِّر حق من حقوقهم، وأمثلتهم. لا يفتن أسقف عن أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا واقة من دقاهيته، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش». وقد جدد العهد خلفاء النبى صلى الله عليه وســلم. لكننا نتصدى للخطاب المكذوب، لا نقبل الاســتقالة من التفكير، أو القفز فوق المشكلات، فالأمر ليــس صدام حضارات أو صراع أديان كخاتم تُصَــكُ به الوقائع والتصورات على أنها حتمية يتم بها تعجيز العقل عن ســؤال الحق، كمحاولة لتطويع العرب والمسلمين، وإلزامهم بحياة دون حقهم، ليس لها بديل سوى الإبادة كمغلوبين، لا ينعمون بسلام عادل ودائم، ويواجهون اغتيال تاريخهم. إن المهمــة المطروحة لا تكمن فــى التخلص من الحــق بتبرير الاختراقات والعــدوان، وإنما بفك الارتباط بين حق الاختلاف الثقافى، والاختلاف فى الحق الذى يســلب من أصحابه، فيشــكل اختلالاً فى حياة شعوبنا، ولا يحقق سلامًا عادلاً ودائمًا؛ وإنما إقصاء عن الحقوق».

هكذا أدلى الدكتور فوزى فهمى بشهادته وأوضح رؤيته لريح السموم التى تهب علينا من الولايـات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص. ولم أجد مبررًا علميًا ولا عقليًا يجعلنى أقطع عليه استرسـاله وإسهابه فى الإدلاء بشهادته.

والمثل الثانى يضربه لنـا الكاتب الصحفى فهمى هويدى فى جريدة الأهرام. وسـأترك له أن يدلى بشهادته ورؤيته بإسهابه البليغ دون أن أجد سوغًا لمقاطعته.

يقول فهمى هويدى[1] الأخطر فى ظنى هو الاختراق الأمريكى الصريح للسـاحة الإعلامية العربية، الذى يسـتهدف إعادة تشـكيل الإدراك العربى، جنبًا إلى جنب مع مساعى إعادة رسم خرائط المنطقة وأرجو أن تلاحظ أننى أتحدث عن اختراق صريح ومكشوف، لأن المشتغلين بالمهنة يعرفـون أن هناك اختراقًـا آخر وقع منذ سـنوات، وتزامن مع درجة الانكسـار والانبطاح فى العالم العربى، وهى الأجواء التى استصحبت حالة من الهشاشـة والضعف هيأت فرصـة مواتية لاختراق العديد من المواقع والقلاع، كانت الساحة الإعلامية العربية واحدة منها، ولم يعد الأمـر يحتاج إلى تمرس طويـل فى المهنة، بل لم يعد الأمر بحاجة لأن يصبح المرء مشـتغلاً بالمهنة أصلاً لكى يعرف من يمثل ((حزب أمريكا)) فـى الإعلام العربى، ذلك أن الكتابة فى بعض أوجهها هى شـهادة أو

(١) فهمى هويدى – هواجس وهوامش صحفية – جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٣/٨/١٢.

اعتراف تكشف عن حقيقة المربع الذى يقف فيه كل كاتب.. ناهيك عن أنـــه فى حالات عدة فإن نفرًا مــن عناصر ذلك الحزب أصبحوا يتباهون بانتمائهم، ويبعثون برسائل المحبة والشكر للدبلوماسيين الأمريكيين على صفحات الصحف الســيارة، ومنهــم من أصبح يصرح فى المجالس والمحافل دون مواربة إحنا بتوع أمريكا.

هـذه الدرجة من «انكشــاف الوجه» لم تكن كافيــة فيما يبدو، فقد خرجت علينا صحيفة «الشــرق الأوســط» (فى ٨/٢) بتقرير من القاهرة يقول: إن مســئولين فى الســفارة الأمريكية وهيئــة المعونة الأمريكية يقومون حاليًا بوضع اللمســات الأخيرة لمشــروع يستهدف إصدار بعض الصحف العربية وإنشــاء محطات تليفزيونيــة فضائية تخاطب العالم العربى. وهذا المشــروع الذى يفترض أن يشمل ٨ دول عربية فى المشرق والمغرب والخليج، ســوف يســهم فى تمويله شــركاء عرب محليون، وحســب التقرير المنشور، فالمراد هو: الإسهام فى إصدار صحف تتمتع باستقلالية كبيرة، بعيدًا عن تدخلات الحكومات والأحزاب العربية، وباســتقلالية أكبر فى التعامل مع القضايا الأمريكية.. وهو ما سيحقق الهــدف الذى ترجوه واشــنطن، وهو الحفاظ علــى مصالحها، فى هذا السياق فإنه سيكتفى بنسبة تتراوح بين ٥٪ و١٠٪ من المواد التحريرية فى كل صفحة لتجميل وجه أمريكا، وهذه ســتزيد مع الوقت، بعد أن يعتاد القارئ العربى على «حيادية» تلك الصحف.

فى التقرير معلومات أخرى عن الإطار الذى تتم فيه هذه المبادرة التــى أطلقها وزيــر الخارجية الأمريكية كولين بــاول واعتمد لها

١٤٧ مليـــون دولار، وهى المبادرة التى ســيبدأ تنفيذها فى العام المقبل (٢٠٠٤) ويعنى شــق منها بتوســيع المشاركة السياســية، وقد خصص من المبلــغ المعتمد ٢٣ مليون دولار لإعادة هيكلــة الصحافة العربية، « التـــى يعول عليها الأمريكيون، نظرًا لأنها الوحيدة القادرة على إيجاد مجتمعــات مفتوحة وديموقراطية على النهــج الأمريكى، وهذه الفقرة الأخيرة منقولة نصًا عن التقرير المنشور».

إذا صــح هذا الكلام، وأغلب الظن أنه صحيح لأننى طيلة الأســبوع المنقضــى أترقب تصويبًا أو تكذيبًا له ولم أجد، فهو يعنى أن الســاحة الصحفية العربية مقبلة على مســتوى من الاختراق غير المســبوق لأن استخدام الإعلام فى التأثير أو التوجيه الثقافى مستقر ومعمول به منذ الحــرب العالمية الثانية، وهو ما وثقته باقتــدار وتفصيل مؤلفة كتاب «الحرب الباردة الثقافية» الباحثة البريطانية فرانســيس ســوندروز، وفــى كتاباتها وفى كل المعالجــات المماثلة، فإن اســتخدام الإعلام أو الأنشــطة الثقافية والفنيــة كان يتم بطريقة ملتوية ومــن وراء أقنعة ولافتــات متنوعة، أريــد بها تضليل الرأى العــام وصرف الانتباه عن الأيدى الحقيقية التى تحرك تلك الأنشطة.

الآن صار اللعب «على المكشوف» تمامًا وبطريقة يختلط فيها الاستهتار بالاســتغفال، فهاهــم أولاء يقولون صراحــة: إننا ســنفعل كذا وكذا، وســننطلق من قلب العواصم العربية لكى نقول ما نريد، إنهم يصرخون بــأن تجميل الوجه الأمريكى هو الهــدف، وإن كل صفحة – وليس كل

عدد – ستتضمن مواد بنسب تتراوح بين ٥٪ و١٠٪ لخدمة ذلك الهدف، وستزيد الجرعة – تباعًا، وهذا هو عين الاستهتار وإن لم يكن الازدراء.

أما الاستغفال فهو يتجلى في الإدعاء بأن المراد هو إصدار صحف تتمتع باستقلالية كبيرة بعيدًا عن تدخلات الحكومة والأحزاب العربية ثم القول بأن نسبة معينة من المواد المنشورة ستركز على تجميل وجه الولايات المتحدة، وأن تلك النسبة ستزيد مع الوقت، بعد أن يعتاد القارئ على «حيادية» تلك الصحف، وكأن تدخلات الحكومات والأحزاب فيما تنشره الصحف هو ما يهتك حيادها وينال من استقلالها، أما تحسين الصورة الأمريكية من خلال نشر مواد بجرعات معينة تخدم ذلك الغرض فى قلب العالم العربى، فإنه لا يتعارض مع الحياد المفترض ولا يخل به!

ترى: ماذا سيكون موقف نقابات الصحفيين فى العواصم العربية؟ وما هو موقف اتحاد الصحفيين العرب من هذا الاختراق العلنى والمفضوح؟!

إنهم يخترقون إعلامنا هنا، ويعززون حصون إعلامهم هناك، ذلك أن ما فعلته صحيفة «نيورك تايمز» فى الأول من شهر أغسطس ٢٠٠٣ يبعث برسالة إلى المؤسسات الصحفية وجميع العاملين فى وسائل الإعلام فى كيفية التمسك بثقة القارئ واحترامه، باعتبار أن اهتزاز أى منها يفقد الصحيفة مصداقيتها، ومن ثم مشروعيتها، ذلك أن الصحف كما نعرفها صنفان، صنف يستمد الشرعية من ثقة السلطة، وصنف آخر يستمد تلك الشرعية من ثقة القارئ، ولأن نيورك تايمز التى تعد

أهم صحيفة فى العالم من ذلك الصنف الأخير فقد قامت الدنيا ولم تقعد حين اكتشفت أن أحد صحفييها الشبان كان يلفق تقاريره وينشرها منسوبة إلى مصادر من خياله أو مجهولة، الأمر الذى اعتبر غشًا وإخلالاً بالأمانة، وتلك جريمة تعد من الكبائر التى لا تغتفر فى عرف أى صحيفة محترمة، لذلك لم يكتف فى مواجهة ما جرى بفصل الصحفى جيسون بلير، وإنما تحمل رئيس تحرير الجريدة ومديرها التنفيذيان مسئوليتهما الأدبية إزاء ما جرى فقدما استقالتيهما اللتين قُبلَتَا على الرغم من كفاءة كل منهما المشهودة فى منصبه، وبدا ذلك إجراءً كافيًا لتضميد الجرح وإزالة أثر الجرم، لكن ناشر الجريدة آرثر سولز برجر ذهب إلى أبعد، فشغل هو وفريقه بكيفية التحسب للمستقبل حتى لا يتكرر ما وقع مرة أخرى، لذلك قرروا استحداث منصبين جديدين لأول مرة منذ ١٥٢ عامًا هى عمر الجريدة، أحدهما أعطى لقب «محرر الجمهور» والثانى سمى «محرر القيم» محرر الجمهور سيتلقى رسائل القراء وملاحظاتهم وينقلها إلى إدارة الجريدة أولاً بأول لكى تضعها فى اعتبارها وتسترشد بها، أما محرر القيم فهو أقرب إلى محتسب المهنة، الذى يراقب التزامها الأخلاقى والمصالح التى تتحراها فيما تقدمه من خدمة صحفية.

فى الوقت نفسه لفتت الإدارة الجديدة للصحيفة انتباه مراسليها إلى التقليص بقدر الإمكان من الاعتماد على كلام المصادر غير المسماة، بحيث يكون الأصل أن ينسب الكلام إلى مصدره الحقيقى لقطع الطريق

على افتعال البعض لتصريحات منسوبة إلى مصادر مسئولة أو مأذونة أو مطلعة، وبحيث يصبح القارئ على بينة من قائل الكلام ومصدره الحقيقي إذا قدرت ذلك واحترمته، فإن أول سؤال خطر لى وأنا أتابع تلك الخطوات كان من صحافتنا المصرية والعربية عامة وحاجاتها الملحة إلى مراجعة أوضاعها لاكتساب شرعيتها من ثقة القارئ واحترامه خصوصًا فى ظل التراجع المشهود فى توزيع الصحف، وعلى الرغم من أن لذلك التراجع أسبابًا عدة، بعضها يتعرض بالركود الاقتصادى العام والبعض الآخر وثيق الصلة بالمنافسة القوية من جانب الفضائيات العربية التى احتلت مكانة مهمة فى التأثير على إدراك المواطن العربى خلال السنوات الأخيرة، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن ثمة خللاً فى الأداء الصحفى نفسه، أثر على ثقة القراء، ومن ثم كان لهم إسهامه فى التراجع الذى نتحدث عنه، وبغير نقد الذات وبغير تحديد مواقع ذلك الخلل، فإن توسيع الفجوة بين الصحافة والمجتمع لن يكلل بالنجاح».

وهكذا ختم فهمى هويدى شهادته[1] ولا أجد ما أضيفه إلا أن نضع نصب أعيننا السؤال الجوهرى كيف نواجه رياح السموم التى تهب علينا من الغرب وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية؟

---

(١) فهمى هويدى – هواجس وهوامش صحفية – جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٣/٨/١٢.